الدّرس الأول
تاريخ الفكر اللساني عند الهنود واليونان

إن درس "تاريخ الفكر اللساني عند الهنود واليونان" والذي يليه مباشرة له صلة بالتّاريخ وسيرورة البحث اللساني عبر حقب زمنية تمتد من الأثر الأول إلى غاية ظهور ما يسمى "اللسانيات الحديثة". وموضوع التّعاقب لا يأخذ فحسب بالمعيار الزمني (الأصل)، بل بالاختلاف الحضاري وتنوعه، ومدى الإضافة وقدرها في حقل البحث اللغوي عموما، ونسبة الجِدّة وأثرها في عصرنا هذا.

وهذا الدرس –كاللاحق له– لا يقف عند أهمية البحث اللغوي، ومدى التّأثير والتّأثر في القديم منه تحديدا وبالتّفصيل، وإنما يتجاوزه إلى الغرض الأول من كل ذلك وهو تقديم مسح شبه شامل وبشكل موجز فيما جدّ، وظهر على أنه اختلاف، لا مجرد إعادة أو استنساخ الموضوع ذاته وبألسنة متعددة. والجهود القديمة التّي يقدمها لا تغطي كل الحضارات والثقافات، وإنما البارز منها، وذا الإضافة والثراء الواضحين في اللسانيات الحديثة والعربية.

ولا ينسى الطّالب – على وجه التّحديد – أن تاريخ الفكر اللساني القديم يثبت بما وصلنا من وثائق موثوق بتاريخها؛ وهو العمل المكلف به أصحاب الاختصاص ونسبتها إلى حضارة بعينها عبر عَلَمٍ من أعلامها، ويجب الأخذ بعين الاعتبار أن تاريخ ظهور الكتابة (اكتشاف أو اختراع) هو بداية الحديث عن جهود الإنسان الفكرية العلمية. والدّليل الوضعي على أن هناك تفكيرا بشريا. وفي مجال التّخصص هي الإثبات على وجود دراسات تتعلق باللغة وقضاياها من قبل أفراد محددين، وفي أزمنة معينة، وحضارات بذاتها.

ولكن تاريخ الفكر اللساني القديم والأقدم منه هو ما وصلنا وليس ما كان بالفعل؛ أي ما يمكن أن يكون موجودا. غير أن ما يُثبت وجوده يعوز المطلع أو الباحث؛ ولا يدخل ما نُقل عن آخَرين عبر مؤلفاتهم في ذلك. فآراء الخليل بن أحمد الفراهيدي (ت 170هـ) النحوية أقدم من آراء

سيبويه (ت 180هـ)، والسّبيل إلى طلب الأول كان بالثاني، ولم يُعرف عن سقراط Socrates (469 – 399 ق.م) أنه ترك كتابا أو مؤلفا ولكن من جاء بعده من الفلاسفة لا يتركون مسألة إلا وذكروا رأي سقراط فيها.

ولا قيمة للآراء اللغوية التّي يمكن أن نتوسل إليها بالنظر والتّأمل فيما وصلنا من مكتوب، على أنها أقدم أو هي التّأسيس لما بين أيدينا، فالذي يصح بالنظر في مجال العلم ليس هو الحقيقة وإنما ما يمكن اعتبار المتحقق في الواقع وبالفعل وعبر ما يفيد أنه دليل (الكتابة). وهو وحده والشكل الأوحد في الحقيقة وإن كان نسبيا. ولكن ذلك لا يعني أن الآراء اللغوية إذا صحت تسميتها بذلك لم يسبق وجودها وجود الكتابة، ومع ذلك لا يصح أن نتحدث عن بحث علمي والبحث اللغوي منه، دون وضع الكتابة في الاعتبار. بل إن الكتابة هي منصة البحث العلمي وهي الشكل الذي يلائمه، بخلاف المنطوق أو الشفوي المتغير والمؤقت من حيث الوجود المادي. فضلا عن كون اختراع الكتابة أو اكتشافها يشي بتطور الفكر البشري، فالكتابة استحداث أدوات تزيد على ما أعطي الإنسان خلقا (الجهاز النطقي)؛ إنها تنتمي للحيز الثقافي لا الطّبيعي أو الغريزي.

والآراء اللسانية التّي نزمع تقديمها في هذه الورقات الأولى من الدرس الأول تغطي حضارتين تحديدا هما الهندية واليونانية.

أولا– الفكر اللساني عند الهنود

لقد نقل عن الهنود القدامى من الآراء اللغوية والأفكار العلمية حول اللغة السّنسكريتية ما يشي بعبقرية فريدة من نوعها. لقد كانوا وصفيين، وعلى درجة من الدّقة والتّنظيم العاليين[1]، ويذكر لنحاتهم على وجه التّحديد ما قدموه من دراسات – حول الظواهر اللغوية – تتسم بالثقة والإيجاز، وبطريقة رياضية في الأغلب الأعم، ولعل لذلك أثره فيما يُذْكَرُون به من قبل الدّارسين المحدثين، فالهنود القدامى موضع تقدير وثقة كبيرين، ليس لسبقهم زمنيا فحسب، وإنما أيضا بسبب الحس

[1] – أحمد مختار عمر، البحث اللغوي عند العرب، ص 57-58.

العلمي الذي تمتعوا به، وانضباط منهجهم التّحليلي، بوصفهم أقدم الرّواد لعصر ما يسمى باللسانيات البنيوية والرّياضية، ممثلة في كل المدارس ذات الخلفية البنيوية، وتلك المسماة الجلوسيمية (المدرسة الدّنماركية، أو مدرسة كوبنهاجن)[2] .

ولقد ظهر اهتمامهم باللغة قبل عصرنا الحالي بقرون عديدة، ولعل ارتباط تلك اللغة المسماة السّنسكريتية بنصوصهم المقدسة وطقوسهم وشعائرهم الدّينية، وتراتيلهم الشفوية في دور العبادة، ما يبرر ذلك الاهتمام. إن حماية تلك النصوص من الانحراف واللحن على مستوى التّركيب والصوت والدّلالة بطبيعة الحال، كان أهم دافع لهم، وأبين حافز قادهم إلى ما وصلوا إليه من أعمال وآراء ترتبط باللغة، تصف ظواهرها الجزئية والكلية وتقرر حقائقها.

وهناك رباط وثيق بين الجانب الخرافي أو الأسطوري عند الهنود وأبحاثهم اللغوية، وسنتوقف عند بعض أمثلتها موجزة[3]:

أ- يعتقد الكثير من الهنود أن لغتهم الأساسية خلقها الإله لاستعمال الناس، بل هي اللغة المستخدمة في التواصل بين الآلهة.

ب- عالج الهنود مشكلة العلاقة بين اللفظ ومعناه من شتى الجوانب اللاهوتية والرّوحية والنحوية وأخيرا الفلسفية.

ج- حديث الهنود عن المقطع الخفي mystic syllable في لغتهم، واعتقدوا أنه يمثل النواة التّي تكونت منها الكلمات، واعتقادهم ذلك مرتبط بنظرية مفادها أن وحدات المقطع الثلاثة تقابل الآلهة الهندية الثلاثة.

د- ذُكِرَ إنّ العالم باتنجالي Patanjali عقد مقارنة بين أجزاء الرّب وأجزاء الكلام.

هـ- تذكر أكثر من أسطورة عن تلقي عدد من العلماء قواعد النحو عن الإله.

---

[2] - ميلكا إفيتش، اتجاهات البحث اللساني، ص 21.

[3] - البحث اللغوي عند الهنود، أحمد مختار عمر، ص 14-16.

وعليه لا غرابة في قول الأستاذ chakravarti أن الهنود كانوا أصحاب تفكير فلسفي عميق غير أنه كان قائما على أسس دينية. وحتى الأفكار اللغوية لم تتخلص من السّلطان الدّيني اللاهوتي، لكن كل ذلك لا يعنى إطلاقا أن كل أبحاثهم ميتافيزيقية، لقد ذكر Lord أن النحاة السّنسكريتيين للهند القديمة هم الرّواد في مجال علم اللغة المقارن. إن لهم ما ليس لغيرهم كاليونانيين من مقدرة فائقة في تحليل أصوات الكلام، مع الخبرة الواضحة في وضع الأنظمة النحوية. وإن علم اللغة المقارن في أوروبا ما كان له أن يولد لو لم يكن هناك اتصال بين علماء اللغة الأوروبيين وذلك التّراث في أوائل القرن التّاسع عشر. وذهب Friedrich Max Müller (1823– 1900م) إلى أن النظام النحوي الذي وضعه الهنود القدامى كان أقرب إلى الكمال. ويزيد chakravarti أن مناهج الهنود ونظرياتهم تعد على درجة عالية من الكمال العلمي، بل وإنها كذلك حتى لو نظرنا إليها بمقياس العلم الدّقيق. وذكر Leonard Bloomfield (1887-1949م) أن الهند القديمة هي صاحبة الفضل في إحداث الثورة في الأفكار الأوروبية عن اللغة، بل إن النحو الهندي وضع أمام أوروبا للمرة الأولى وصفا دقيقا وشاملا للغة قائما على الملاحظة العلمية لا الافتراضات النظرية أو التّخمينات العقلية. ويصرح Robin أن ما تركه الهنود من دراسات حول اللغة السّنسكريتية Sanskrit من الناحيتين النحوية والفونولوجية يعد من الأفكار التّقدمية التّي وجدت سبيلها في الدّرس اللغوي الأوروبي.[4]

وبعد أن بينا عبقرية البحث الهندي القديم حول اللغة المسماة السّنسكريتية يليق بالبحث أن يتناول حقيقتها. إن لفظ "السّنسكريتية Sanskrit " يطلق على اللغة القديمة للهندوس التّي كتب بها معظم تراثهم، وتنسب هذه اللغة للفصيلة Indo-European، وهي لغة أصل لكثير من اللهجات مثل Pali أو Prakrit ولهجات شمالي الهند. وكان الهنود يعتقدون أنها مقدسة؛ وأن دليل قداستها خَلْقها من قبل الإله لاستعمال الناس من جهة، وكونها لغة التّواصل بين الآلهة من جهة ثانية. وماز العلماء بين فترتين للغة الهندية القديمة: الأولى: فترة ما سموه Vedic Hymns، والثانية فترة Classical Sanskrit؛ الأولى تتميز بكون نحوها أقل نضجا واستقرارا، ونظام جملتها كان أسهل، كما كانت

---

[4] – البحث اللغوي عند الهنود، أحمد مختار عمر، ص16-17.

تحتوي على عدد من الصيغ والاستعمالات والتّعبيرات التّي ماتت وانقرضت في الفترة التّالية أو تغيّر معناها. وبسبب هذا الأخير (الانقراض والبدل الدّلالي للألفاظ) ظهرت الحاجة في العصر الكلاسيكي إلى ضرورة شرح نصوص الفيدا وضبط معانيها. وعن الشعور بتلك الحاجة أيضا تولدت كل الدّراسات اللغوية.[5]

تنتمي السّنسكريتية حسب تقسيم شليجل Frédéric Schlegel.(1772-1829م) إلى اللغات التّصريفية، ولها صلة قرابة باللغات الأوروبية، ويعد sir William Jones (1746–1794م) أول من اكتشف العلاقة الوثيقة والتّشابه الكبير بين السّنسكريتية واليونانية، وتحتوي اللغة السّنسكريتية على نحو ألفي جذر أو أصل اشتقاقي، وجذورها عادة تكون ذات مقطع واحد monosyllabic، ويوجد العدد الكبير من الكلمات الذي يدور حول الجذر الواحد عن طريق إضافات أو تغييرات لهذا الجذر، واللواحق التّي تضاف للجذور ليست مشتقة أساسا من كلمات مستقلة، وهي وحدات صغيرة تشمل تقريبا كل الفونيمات الممكنة، ومثال ذلك اللاحقة (a) التّي تضاف عادة لتفيد التّأنيث مع الصفات المنتهية بعلة (الحركة)، وتحتوي السّنسكريتية على ثلاثة أجناس: مذكر ومؤنث ومحايد، والفعل فيها على أربعة أزمنة: الماضي، والماضي الذي يحدث لتوه، والحاضر، والمستقبل. والفعل (ويكون متصرفا بحسب الشخص والعدد والزمن) هو محور الجملة، بل يمكن له أن يكون جملة كاملة لوحده... ولاحظ الباحث chakravarti أن الكثير من الكلمات في السّنسكريتية تحمل أكثر من معنى قد يصل في بعضها إلى اثني عشر معنى.[6]

ولكي يتم استغراق تناول التّراث الهندي ولو بشكل موجز حري بنا الإشارة إلى بعض أعلامه:

1. ياسكا Yaska

وضعه chakravarti في وقت غير متآخر عن 700 ق.م أي في وقت أقدم من بانيني، وهو الرّأي الأشهر. وترجع أهميته إلى كونه مؤسس علم الاشتقاق Etymology عند الهنود، ووضع في ذلك

---

[5] – البحث اللغوي عند الهنود، أحمد مختار عمر، ص18-19.

[6] – نقلا عن المرجع نفسه، ص19-21.

كتابا عُرِفَ باسم Nirukta (أي التّفسير)، وهو كتاب –في حقيقة أمره–يعد شرحا لأحد الكتب المسماة Nigranthu (أي المجموع المرتب)، وهو كتاب لا يعرف له مؤلف، وإن ذهب بعضهم إلى أنه إنتاج جيل كامل أو عدة أجيال، وليس من إنتاج شخص بمفرده، و Nigranthu التّي شرحها ياسكا تحتوي على خمسة أبواب: تتضمن الأبواب الثلاثة الأولى ألفاظ التّرادف، والرّابع ألفاظ المشترك اللفظي، والخامس ألفاظا تتعلق بالآلهة، وبالعودة إلى الأبواب الثلاثة الأولى نجدها تعالج الموضوعات وفق نظام محدد، ففي الأول نجده يعالج الأشياء الحسية مثل الأرض والهواء والماء والأشياء الطّبيعية مثل السّحاب والقمر والليل والنهار، أما الثاني فيعالج الإنسان وما يتعلق به من صفات وعيوب، وأما الثالث والأخير فيعالج الأشياء المجردة أو المعنوية.[7]

أما كتابه الشارح المسمى Nirukta فقد بدأه بشرح العنوان (أي عنوان المصنف)، وتلا ذلك بابان تمهيديان تناول الأول فيه أقسام الكلمة، وقضية اشتقاق الأسماء من الأفعال (وهو الأول الذي قال بذلك ودافع عن رأيه بقوة)،وأهمية الاشتقاق وغيرها من قضاياه، وتناول في الثاني أسس الاشتقاق وقواعده، ثم أتت قوائم المفردات موزعة كما في المصنف (الأصل) Nigranthu.[8]

2. بانيني Panini

لم يختلف العلماء في تحديد زمن أحد من لغويي الهنود كما اختلفوا في أمر بانيني على الرّغم مما يتمتع به من شهرة قل لها نظير؛ إلا أن أقرب الآراء إلى القبول الرّأي الذي وضعه بين عامي 700، 600 ق.م. و "بانيني" هو اسم الأسرة، أما اسمه الشخصي فقد اختلف فيه فمنهم من يسميه Ahika ومنهم من يسميه Salanki، وقيل هوSalaturiya وهي نسبة لبلدته التّي تقع مكان "لاهور" الآن. وقد ألف بانيني عدة كتب في اللغة والنحو ولكن أشهرها على الإطلاق وأهمها هو كتابه في النحو المسمى Ashtadhyayi، وهو أقدم ما وصلنا في موضوعه. والكتاب المذكور كما يدل عليه اسمه مقسم

---

[7] – البحث اللغوي عند الهنود، أحمد مختار عمر، ص29-31.

[8] – المرجع نفسه، ص31.

إلى ثمانية أقسام وكل واحد منها مقسم إلى أربعة فصول. ويحتوي على ما يقرب من أربعة آلاف قاعدة موزعة على الأقسام الثمانية كالتّالي:

1) يحتوي القسم الأول على تعريفات عامة وقواعد للشرح، كما عالج فيه مجموعة من المشكلات الصوتية المتنوعة.
2) وعالج القسم الثاني قضايا الإبدال، والهدف من التّصريف، كما وضع قواعد الجنس (مذكر، مؤنث، محايد)، والأعداد اللغوية (مفرد، وجمع).
3) تناول في القسم الثالث اللواحق الأساسية.
4) أما القسمان الرّابع والخامس فتناول فيهما اللواحق التّي يمكن إضافتها للأصل غير الفعلي، وما يتكون من ذلك من جذور غير أساسية ولواحق تصريفية.
5) وتناول في القسم السّادس والسّابع بحوثا صرفية–صوتية على مستوى الكلمة المفردة.
6) أما القسم الثامن (الأخير) فتناول فيه مشاكل متنوعة.

وأهم ما عيب فيه غياب الرّبط بين أقسامه. كما كان للاختصار الشديد الذي التزمه رغبة في تسهيل حفظه أثره الواضح فيما بعد على وضوحه وبساطته؛ إذ بدا كما لو أنه ألغاز وأحاج حتى بالنسبة للمتخصصين في البحث السّنسكريتي.[9]

والملفت للانتباه أنه عمل بانيني يكون قد سُبق بأعمال كثيرة لكنها لم تصلنا، ولكن من المؤكد أنها كانت تحت تصرف بانيني، وأنه استفاد منها في كتابه المذكور، وعلى ضوء المذكور آنفا لا يعد بانيني رائد هذا الحقل (النحو)، وإن عدّ واضع المنهج العلمي للنحو، وليس هناك من نحاة الهند وعلمائها من طاله الإعجاب من المحدثين والانبهار كما حدث مع بانيني فهو المحيط الواسع من العلم، وهو العمل الفني المتكامل، وهو مرجع العلماء ومعيار الصواب اللغوي، وكانت كلمة بانيني قانونا في الهند إذا تعلق الأمر بمسائل النحو، و ليس هناك من نحو يعادل نحوه، وهو أول محاولة في تاريخ العالم لوصف اللغة وتحليلها بطريقة علمية. وهو الأساس الذي يقوم عليه الدّرس النحوي حتى

---

[9] – البحث اللغوي عند الهنود، أحمد مختار عمر، ص33-38.

في عصرنا الحالي، ويذكر Leonard Bloomfield (1887-1949م) أن نحو بانيني يعد من أعظم الشواهد القديمة على تقدم العقل البشري، إذ يصف بكل دقة وتفصيل كل تصريف واشتقاق وتركيب. ولا توجد لغة في العصر الحالي (عصر بلومفيلد) قد وصفت بمثل الدّقة التّي وصفت بها السّنسكريتية على يد بانيني. وكتبت عدة شروح وتعليقات على عمل بانيني، منها شرحا كاتيايانا وباتنجالي، والشرح المسمى The Kasika الذي يرجع إلى حوالي 700 م. وتلك الشروح تبقى دليلا على عظمة العمل وقيمته المعرفية في مجال التّخصص.[10]

3. كاتيايانا Katyayana

اختلف المؤرخون في الزمن الذي يعيش فيه بالتّحديد. فمنهم من ذهب إلى أنه عاش ما بين عامي 500 و359 ق.م. ومنه من وضعه بين عامي 400 و300 ق.م. اشتهر بكتاب اسمه Varttikas بمعنى الشرح وهو عبارة عن منظوم، ويعد تعليقا على كتاب بانيني ويغلب عليه النقد والتّقويم، وحجمه صغير إذ لا يتجاوز مقدار الثلث من كتاب بانيني، وليس في عمله (كاتيايانا) ما يعد تجنيا أو انتقاصا من آراء ومكانة المصنف (بانيني)؛ بل قصارى ما قام به هو إخضاع الكتاب للبحث والفحص والتّعديل والزيادة فيما أمكن أن يكون ضروريا. إن الرّوح النقدية العلمية هي الموجه له حتى أنه من أتباع أستاذه والمدافع عن آرائه والمتبني لأفكاره، ولكن بطريقة تختلف عن الشارح الآخر المشهور المسمى باتنجالي.[11]

4. باتنجالي Patanjali

لقد اختلف العلماء في تحديد الزمن الذي عاش فيه اختلافا مبالغا فيه إلى الحد الذي يصل فيه إلى اثني عشر قرنا، لكن الباحث Bhandarkar ذهب بالدّليل إلى أنه عاش حوالي 150 ق.م، وهو ما حدا بالباحثين إلى الأخذ برأيه في هذا؛ ولعل السّبب في اختلاف زمن وجوده هو وجود عدد من العلماء الذين يحملون الاسم ذاته. ويعود مكان ميلاده إلى منطقة كشمير الآن، وبالتّحديد مكان

---

[10] – البحث اللغوي عند الهنود، أحمد مختار عمر، ص34-38.

[11] – المرجع نفسه، ص39-40.

يسمى Ganarda. وعرف عن باتنجالي أنه الشارح العظيم لكتاب بانيني والمدافع عنه والمنتصر له. وكانت طريقته بعد التّعريف بطبيعة العلم ومجالاته وفائدته التّعليق على عمل بانيني، متناولا كل قاعدة كلمة كلمة بالشرح والتّحليل مع الاحتفاظ بأصل القاعدة أو صيغتها كما هي في كتاب المصنف بانيني.[12]

5. أمارا سنها Amara Sinha

هو كاتب بوذي عاش على الأرجح قبل القرن السّادس الميلادي، وترجع شهرته إلى عمله المعجمي. حيث كتب معجما للمترادفات في ثلاثة أبواب وألحق فصلا عن المشترك اللفظي، وآخر عن الكلمات غير المتصرفة والكلمات المذكرة أو المؤنثة أو المحايدة. ومن الأسماء التّي تسمى بها المعجم Amarakosa وTrikanda (بمعنى ثلاثة كتب).[13]

6. بهارترهاري Bhartrhari

وعاش حوالي القرن السّابع الميلادي وهو متأخر عن الشارح العظيم باتنجالي غير أنه يشاركه في العمل، وكان كلاهما ممثلا للمدرسة النحوية التّي أنشأت نظرية تقول بوجود ما هو باطن وفي الوقت ذاته ثابت لا يقبل التّغيير يكمن وراء كل التّنوعات العرضية التّي تميز نظاما لغويا بعينه عن غيره. وفي مجال علم الأصوات يظهر فيما يسمى الفونيم (Phoneme) بتعبير القرن الماضي، ويعني به القيمة الصوتية الثابتة في مقابل الظواهر الصوتية الكلامية العارضة (تنوعات أكوستيكية أو سمعية نطقية لا دخل لها في الدّلالة).[14]

ثانيا– الفكر اللساني عند الإغريقي:

مما لا شك فيه أن أهمية وقيمة الأبحاث اللسانية الإغريقية عند الباحثين الأوروبيين تقدم على غيرها من الدّراسات الأخرى وبالتّحديد على الأبحاث الهندية في اللغة السّنسكريتية، ليس لعمقها

---

12 – البحث اللغوي عند الهنود، أحمد مختار عمر، ص40-42.

13 – المرجع نفسه، ص43-44.

14 – اتجاهات البحث اللساني، ميلكا إفيتش، ص23-24.

وثرائها فحسب بل لكونها أسبق وجودا عندهم بالنظر إلى غيرها، والسّبق لا يتعلق بالوجود الفعلي والتّحقق الواقعي زمن النشأة، بل بالاكتشاف. إنّ الدّراسات السّنسكريتية قديمة جدا لكن معرفتها لا تتجاوز تاريخ اكتشاف اللغة السّنسكريتية وعلاقتها باللغات الأوروبية من قبل لقد :«كان أول عالم كبير في السّنسكريتية إنجليزيا هو ويليام جونز William Jones (1746م- 1794م) الذي أكد أن اللغات السّنسكريتية واليونانية والقوطية وربما الكلتية أيضا، كانت تربطها روابط وثيقة، وأنها نشأت عن لغة مشتركة لم يعد لها الآن وجود» [15]، ويذكر أيضا أن و. جونز W.Jones نبه إلى أهمية البحث في السّنسكريتية في زمن مبكر يعود إلى سنة 1786م إلا أن جمهور الباحثين اللسانيين في أوروبا تأخر احتكاكهم بتلك اللغة. ويرجع الفضل في الاهتمام بها إلى أعمال فرانس بوب Franz Bopp (1791-1867) العلم الألماني والمؤسس للنحو المقارن.[16]

وتعد اليونان القديمة هي مهد النشأة الأوروبية للسانيات النظرية وترجع المدونات اللغوية الأولى إلى بداية العصر الكلاسيكي في القرنين السّادس والخامس قبل الميلاد؛ ولم يكن اليونانيون هم أول من طرق الموضوعات اللغوية في المنطقة فقد استفادوا من إنجازات الحضارات القائمة التّي اتصلوا بها من جهة الطّرف الشرقي للبحر المتوسط، في الهلال الخصيب لآسيا الصغرى، لكن هناك في اليونان ظهرت رغبة نهمة لاستطلاع العالم المحيط بهم، لقد نجح اليونانيون فيما فشل فيه غيرهم[17] :« فالبابليون الذين لاحظنا بالفعل علاقاتهم بعلم اللغة التّطبيقي، قد استعملوا الهندسة في مسح الأراضي والحساب والفلك في عمل تقويم للوقت؛ ولكننا في اليونان وجدنا أن الفلك والحساب والهندسة كانت تدرس بوصفها علوما مجردة مستقلة لأول مرة، وتقام على أساس من الملاحظة النظامية ووضع الفروض والقواعد»[18].

---

15 – اتجاهات البحث اللساني، ميلكا إفيتش، ص40.

16 – المرجع نفسه، هـ2، ص48-49.

17 – موجز تاريخ علم اللغة (في الغرب)، روبرت هنري روبنز، ص28-30.

18 – موجز تاريخ علم اللغة (في الغرب)، روبرت هنري روبنز، ص30.

وكان اليونانيون على وعي بوجود لغات أخرى تختلف عن لغتهم، وإن عبروا عن موقفهم منها بتسمية أصحابها أو متكلميها البربر Barbarian أي الغرباء. كما كانوا على دراية بتعدد لهجات اليونانية في ذاتها. كما كانوا على وعي تام بأن لغة القصائد الهومرية (الإلياذة والأوديسا) لم تكن تتطابق مع أي لهجة حية من لهجات واستعمالات ذلك الزمن. وتعد الأبجدية اليونانية كما هي معروفة اليوم صورة معدلة للكتابة الفينيقية، إذ لم تكن الأبجدية الفينيقية سوى مجموعة من علامات الصوامت، أما الصوائت فلم تكن موجودة ويستمدها القارئ من خلال فهمه لما هو مكتوب وعليه قام اليونانيون بوضع علامات تفيدها في لغتهم. كما عدت نشأة الكتابة واستعمالاتها هي أولى مراحل المعرفة اللغوية في بلاد اليونان، والدّليل على ذلك أن كلمة grammatikos ومن تاريخ استعمالها الأول وحتى عصر أفلاطون وأرسطو كانت تعني الشخص الذي يفهم ويستعمل الحروف، ويستطيع القراءة والكتابة.[19]

إن ما يوجد في المدونات من ملاحظات عن اللغة عند اليونانيين يرجع إلى الفلاسفة السّابقين لسقراط Socrates (469 ق.م – 399 ق.م) ، وإلى بلاغيي القرن الخامس ق.م. وإلى سقراط وإلى ما ورد في نصوص أفلاطون Plato (عاش 427 – 347 ق.م) وأرسطو Aristote (384 – 322 ق.م). أما التّمايز الواضح للدراسات اللغوية داخل إطار الفلسفة فلم يظهر حتى عصر الرّواقيين.

وكان البلاغيون معروفين جدا في المجتمع اليوناني وذلك بداية من القرن الخامس الميلادي ومن بينهم وأشهرهم جورجياس الصقلي، لقد درس هؤلاء الأشخاص البلاغة دراسة احترافية. أما المعرفة بآراء سقراط اللغوية فلم تكن مباشرة إذ لم يترك أثرا مكتوبا. وكان جل ما وصلنا منه ورد في بعض كتابات زينوفون Xénophon (430 –355 ق.م)، وفي محاورات أفلاطون الأكثر شهرة؛ وليس هناك من دليل واضح يطمئن حول كونها آراء سقراط بالفعل أو أنها آراء أفلاطون عُبر عنها بلسان سقراط[20].

---

19 – المرجع نفسه، ص30-33.

20 – موجز تاريخ علم اللغة (في الغرب)، روبرت هنري روبنز، ص34.

1- آراء سقراط من خلال المحاورة المسماة كراتيليوس:

محاورة كراتيليوس هي واحدة من الكتابات الأولى لأفلاطون موضوعها الرّئيس هو أصل اللغة والأسماء وإن كانت قد تعرضت بشكل عرضي لموضوعات ثانوية متعددة[21]. والشخصية الرّئيسية الأولى هي شخصية سقراط Socrates (469 ق.م – 399 ق.م) الذي ولد وعاش في أثينا[22]. ويمكننا أن نجمل الآراء اللغوية لسقراط فيما يأتي من أقوال مترجمها ودارسها الأستاذ عزمي طه السّيد أحمد:

إن الأسماء جزء من الكلام. والكلام نوع من الفعل كما التّسمية، والفعل نوع من الوجود. وأن تحقق الكلام يجب أن يتم بالطّريقة الطّبيعية وليس كما يريد كل واحد منا، وبالآلة الطّبيعية له أيضا (الجهاز النطقي) وليس بأجهزة أخرى ليست له أصالة[23].

إن وظيفة اللغة الأساسية تكمن في التّواصل، والاسم كونه جزءا من الكلام ينظر إليه على أنه وسيلة لنقل المعلومات عن الأشياء، ووسيلة لتمييز الأشياء بحسب طبائعها؛ لأن الاسم الصحيح يشير إلى طبيعة الشيء الذي نسميه ويخبرنا بحقيقته[24].

إن مطلق الأسماء الأول إما يكون من الآلهة، أو يكون أحد الحكماء من البشر وعليه نجد في هذا عرضا لموقفين في تفسير أصل اللغة ونشأتها، الأول توقيفي والثاني اصطلاح بشري[25].

من المفيد الميز بين وضع الاسم الذي يتم من المشرع أو صاحب الحكمة، ومستعمله في نقل الحقائق وهو جدلي أو الفيلسوف المعلم، ومن المفيد التّنبيه إلى أن مستخدم الأسماء هو الأقدر على

---

21 – محاورة كراتيليوس، أفلاطون، الدّراسة، ص15.

22 – المرجع نفسه، ص31.

23 – المرجع نفسه، ص37.

24 – المرجع نفسه، ص39.

25 – المرجع نفسه، ص41-42.

توجيه المشرع في عمله حين يضع الأسماء، وهو الأجدر بإصدار الحكم على صواب الأسماء، وعلى المشرع أن يستشيره ويسترشد برأيه وتوجيهه[26].

إن إطلاق الأسماء على الأشياء عمل مقصود لغرض معين ووظيفة محددة، والاسم يكون بما يتشكل من الحروف والمقاطع للتعبير عن طبيعة الشيء، وعملية المواضعة تتم بصورة متفاوتة من الإتقان، وهي إلى جانب ذلك عمل تخصصي دقيق، ذلك أنها تسعى إلى معرفة وإيضاح الصواب الطّبيعي لعدد من الأسماء في إطار ما يسمى نظرية المحاكاة الطّبيعية[27].

إن نظرية المحاكاة الطّبيعية هي المعيار الذي يقاس به تفاوت اللغات في الكمال أو النقص. ولكيلا يكون هناك تناقض بين كون اللغة الأولى تعبر عن طبيعة الأشياء؛ لأنها صادر عن الإله أو المشرع البشرى الأكثر حكمة، وكوننا في هذا الزمن (زمن سقراط أو أفلاطون) لا نستطيع أن نعرف حقيقة الشيء من اللفظ الذي يحيل إليه، يتصور أن اللغة وضعت في أكمل حالاتها، وأمثل صيغها وفقا لمبدأ المحاكاة الطّبيعية، لكنها لا تسلم من التّغيير الذي يصيبها مع مرور الزمن، وطول العهد وبعده عن الوضع الأول[28].

إن التّغيرات التّي تطرأ على الأسماء أو اللغة مختلفة الأشكال والأسباب، ومعرفة الأسباب والشكل الأول للأسماء موكل به المختص في التّأصيل المعجمي Etymologist. أما أشكاله فلا تخرج عن زيادة حرف إلى الاسم أو حذفه منه، وأغراضه لا تخرج عن طلب سهولة النطق به، أو تلمس عذوبة زائدة، أو إرادة التّأنق في استعماله، أو جعل شكله أجمل، أو رغبة في إخفاء معنى فاسد أو قبيح. وإذا كان العامل فيما ذكر من تغيرات سببه البشر، فإن هناك تغيرات تحدث بعامل الزمن، وتكون متدرجة وبطيئة[29].

---

[26] – محاورة كراتيليوس، أفلاطون، الدّراسة، ص45.

[27] – المرجع نفسه، ص49-50.

[28] – المرجع نفسه، ص61.

[29] – محاورة كراتيليوس، أفلاطون، الدّراسة ، ص63-64.

2- آراء أرسطو Aristote (384-322 ق.م):

لقد عرف أرسطو أعمال أفلاطون وعلى أساس تلك المعرفة طوّر أفكاره الخاصة به، كما هو شأن أعمال أفلاطون فقد كانت أقواله متناثرة في أعمال مختلفة من البلاغة والمنطق[30].

ولقد كان موقفه من اللغة واضحا حيث:« تمثل الكلمات المنطوقة رمزا أو إشارات للانفعالات أو الانطباعات النابعة من الرّوح بينما تمثل الكلمات المكتوبة رمزا للكلمات المنطوقة. والكتابة مثلها مثل الكلام تختلف بين الأجناس البشرية، بيد أن الانفعالات الذهنية ذاتها -وما هذه الكلمات بالأساس إلا رموزا لها- واحدة لدى جميع البشر، وكذلك الحال بالنسبة لجميع الأشياء إذ تصبح الانفعالات إما تمثيلا لها أو صورا وأفكارا وانطباعات عنها»[31].

ويرى أرسطو بفهم عصري لبعض آرائه أن المنطق ما هو إلا تحليل وظيفة اللغة، واللغة تعبير عن المبدأ العقلاني، أي الملكة الفكرية التّي تجعل من الإنسان حيوانا عاقلا (منطقيا). وهو على خلاف أستاذه أفلاطون يؤمن بالأعراف والاستعمال وعلاقتهما بالكلمات ودلالتّها. إن الحقائق عنده ليست مثلا عليا، بل هي ما يتحقق في عالم الناس اليومي، وعليه لم يعتبر البحث في أصول المفردات أو التّسميات له صلة بالفهم الشامل للغة، كما لم يعتبره ذا فائدة عملية[32].

ويعتمد أرسطو على المعاني في تصنيف المقولات العشر، فكل كلمة أو تعبير منفصل يعني واحدا من الأمور الآتية: ماذا للمادة، وأين للمكان، ومتى للزمان، وما نوع الشيء للنوعية، وما حجمه للكمية، والموقف للوضع والمكانة، وفي أية حالة للحالة أو الظرف، وماذا يعمل للفعل، ونوع المعاناة للانفعالات، وهناك ما هو للعلاقة. وتمثل هذه المقولات التّعبيرية العشر حجر البناء اللفظي الذي يستخدم في بناء أية جملة بسيطة. وورث أرسطو من بين ما ورثه عن أفلاطون تمييزه بين الاسم

---

30 - موجز تاريخ علم اللغة (في الغرب)، روبرت هنري روبنز، ص35.

31 - أعلام الفكر اللغوي (ج1: التّقليد الغربي من سقراط إلى سوسير، روي هاريس وتولبت جي تيلر، ص51.

32 - المرجع نفسه، ص51-52.

والفعل؛ ولكن غرضه الأساس من ذلك كان لهدف أبعد وهو العلاقة بين المسند والمسند إليه البسيطين[33].

ويعتبر أرسطو اللغة أداة للإقناع عامة والإقناع الأدبي بشكل خاص، وهذه الفكرة هي الطّاغية في رسائله في الخطابة وفي كتابه في الشعر. وعرف الاستعارة بكونها إعطاء الشيء اسما يعود لشيء غيره إذ يتم نقل المعنى إما من الجنس إلى النوع أو من النوع إلى النوع... إلخ[34].

3- أفكار المدرسة الرّواقية:

تعد المدرسة الرّواقية من أهم المدارس في تاريخ علم اللغة بعد أرسطو وهي مدرسة أسسها Zénon de Cition (335 – 263 ق.م) حوالي 300 ق.م، اشتغل الرّواقيون في المجالات نفسها التّي اشتغل بها أرسطو غير أنهم تميزوا في بعض النواحي فلسفية والبلاغية، إذ كانت لهم مناهجهم وأفكارهم الخاصة. لقد عالجوا المسائل اللغوية بشكل مستقل عن الأعمال الأخرى وبطريقة منظمة. وصاغ الرّواقيون ثنائية الصيغة والمعنى بالشكل الذي نجده فيما بعد (بعد حوالي 22 قرنا) عند فرديناند دي سوسير Ferdinand de Saussure (1857–1913)، كما قدموا معالجات مهمة ومستقلة لكل من علم الأصوات والقواعد والإتيمولوجيا، لكن تميزهم ظهر جليا في مجال القواعد. وعندهم دون غيرهم –على الأقل ممن سبقهم–حصل علم اللغة على الاعتراف به كحقل أو موضوع مستقل بين الدّراسات الفلسفية. وتنسب إليهم نظرية في النحو أو تركيب الجملة وهي نظرية تقوم على تحليل أنواع الإسناد المختلفة في اليونانية، كالإسناد بالفعل المتعدي أو اللازم أو المبني للمجهول[35].

4- مدرسة الإسكندرية:

يطلق مصطلح "مدرسة الإسكندرية" على حقبة بارزة من الدّرس النحوي في مركز البحوث اللسانية الذي أسسه الإغريق في مدينة الإسكندرية واستمر نشاطه إلى غاية أوائل القرنين الثالث

---

33 – أعلام الفكر اللغوي (ج1: التّقليد الغربي من سقراط إلى سوسير، روي هاريس وتولبت جي تيلر، ص57-58.

34 – المرجع نفسه، ص60، 62-63.

35 – موجز تاريخ علم اللغة (في الغرب)، ر.هـ. روبنز، ص36-37.

والثاني قبل الميلاد. وقبل زمن الإسكندريين لم يكن النحو إلا فرعا من فروع البحث الفلسفي اليوناني، له متخصصوه المتمرسون، كما له فروعه التّي تأسست لخدمته لقد اهتم مصنفو المعاجم Lexicographers يجمع الكلمات وضبطها، كما قام علماء المعاجم Glossators بشرح وبيان المفردات الصعبة، فضلا عن التّعبيرات الفنية، والأشكال اللهجية، ودرس البلاغيون Rhetoricians من اللغة ما يسمح بتنمية مهارة الخطابة، وتخصص المحققون Scholiasts في شرح النصوص ...إلخ. والأهم من كل ذلك أنهم قدموا نحو وصفيا للغة اليونانية ولاقى شهرة واسعة، ولكن ما قلل من قيمته أنه لم يكن موضوعيا ويرجع ذلك لسببين: الأول: أن عملهم كان مغرقا في التّفلسف، الثاني: ميلهم الواضح إلى اعتبار اللغة اليونانية من أعظم اللغات البشرية. لغة كان حظها من المنطقية والمثالية ما لم يكن لغيرها[36].

وكان من أعلامها ديونيسيوس ثراكس Dionysius Thrax (القرن الثاني قبل الميلاد). وهو أول من صاغ التّعريف الكلاسيكي الشهير للجملة من حيث هي تركيب من الكلمات يعبر عن فكرة تامة، كما قسم الأسماء إلى الاسم العام والعلم، وقدم وصفا تفصيليا للفعل في اللغة اليونانية من حيث خصائصه الصرفية[37].

وكان العالم أبولونيوس ديسكولوس Apollonius Dyskolus (من القرن الثاني الميلادي) من أبرز من عمل في مجال النحو الوصفي، ومن أوائل النحاة في العالم الذين بدأوا في الاهتمام الجاد بقضايا البنية النحوية. إذ ذهب إلى اعتبار الدّراسة النحوية ينبغي لها أن تقوم على النظر في القواعد التّي تضبط نماذج التّأليف بين الكلمات في الجملة، ولم يضع تمييزا فاصلا بين الاستعمالات العارضة للكلمات في الجملة وأشكالها المعجمية الأساسية المعيارية[38].

5- أبرز المناقشات في تاريخ اليونان:

36 – اتجاهات البحث اللساني، ميلكا إفيتش، ص13-14.

37 – اتجاهات البحث اللساني، ميلكا إفيتش، ص14، وه (11) من الصفحة 20.

38 – اتجاهات البحث اللساني، ميلكا إفيتش، ص15، وه (12) من الصفحة 20.

تعد مشكلة النشأة اللغوية الأولى وما تعلق بها من مذهب التّوقيف الإلهي، والاصطلاح البشري من جهة، وطبيعة العلاقة بين الصيغة الصوتية والمعاني هل هي طبيعية أم اعتباطية من جهة ثانية أبرز ما نتج عنه الخلاف بين اتجاهين لغويين في تاريخ الفكر اللساني عند اليونان، وأعني بهما القياسيين أو أصحاب القياس Analogists والمشذّذين أو أصحاب الشذوذ Anomalist.

فقد ذهب أصحاب القياس إلى أن اللغة عطاء الطّبيعة، وأنها لذلك لا علاقة لها بالعرف البشري. وأن اللغة في جوهرها منطقية نظامية، ويعني ذلك أن الصيغة الصوتية لها ارتباط لزومي بالمعاني التّي تفيدها، وأن التّوافق بينهما تام وثابت لا يتغير ولا يتبدل، ولأنهم اختاروا هذا المنحى من التّفكير العلائقي بين اللفظ ومعناه بذلوا جهدا كبيرا في البحث في جذور الكلمات وأصولها الأولى والمسمى بالبحث التّأثيلي Etymological Research وأشهر من يمثل أولئك ويعبر عن أفكارهم هيراقليوس Heraclitus (حوالي 500 قبل الميلاد) الذي يصر على وجود علاقة تطابق بين العقل البشري بوصفه نظاما كليا ومتكاملا وبين اللغة بوصفها أيضا بنية ونظاما. ويعد أفلاطون وسقراط في ضوء محاورة كراتيليوس من أنصار هذا الاتجاه أو النزعة[39].

وذهب أصحاب الاتجاه الثاني المسمى المشذّذون إلى إنكار قداسة اللغة إنكارا تاما، ومذهبهم هذا هو مذهب ديموقريطوس Democritus الشهير (حوالي 460-360 ق.م). واتخذ أرسطو وجهة نظر عرفية تماما، إن اللغة نتاج العرف والاصطلاح، وليست هناك أسماء تنشأ بشكل طبيعي. ويعلل ثبات المضمون الخاص بالأسماء إلى أن مصدره العرف ولا شيء غير العرف، وحتى يكون بذلك متمنّعا على تقلبات الأهواء الفردية، والنزوع الشخصي في تغيير الأسماء[40].

والخلاصة في مذهب أصحاب التّشذيذ أنهم لم يكونوا على قناعة بوجود ارتباط مثالي بين الصيغة الصوتية للكلمة وبنيتها الدّلالية، وأبانوا كل أشكال الشذوذ فيما تناولوه بالبحث أو الإثبات-

---

[39] – ينظر اتجاهات البحث اللساني، ميلكا إفيتش، ص10، وموجز تاريخ علم اللغة (في الغرب)، ر.هـ.روبنز، ص40-42.

[40] – ينظر اتجاهات البحث اللساني، ميلكا إفيتش، ص10، وموجز تاريخ علم اللغة (في الغرب)، ر.هـ.روبنز، ص41، أعلام الفكر اللغوي (ج1: التّقليد الغربي من سقراط إلى سوسير، روي هاريس وتولبت جي تيلر، ص53-54.

النقض على مستوى العلاقة اللغوية[41]. وذهب أبيقور Épicure (341–270 ق.م) موقفا وسطا حينما اعتبر أن نشأة الصيغ اللغوية كانت طبيعية، ثم ما فتئت أن تغيرت بفعل العرف[42].

[41] – اتجاهات البحث اللساني، ميلكا إفيتش، ص10.

[42] – موجز تاريخ علم اللغة (في الغرب)، ر.هـ.روبنز، ص41.